

قائمة شندلر.. فيلم إنساني أولا وأخيرا

ستيفن سبيلبرغ سينمائي تسليح بخيال الأطفال



قائمة شندلر.. من أنقذ روحا فقد أنقذ العالم بأسره

الميزة التي يتمتع بها مصنعه باعتباره "عملا تجارية حيوية للجهد الحربي في بولندا"، وهو المركز الذي لم يؤهله للحصول على عقود مبرحة مع الجيش لحبس، وإنما مكتسب من الاعتماد على العمال اليهود المعتقلين في المعسكرات. وحين أصبح مستخدموه اليهود مهدين بالترحيل إلى معسكر أوشفيتز، ساء الصيت، استطاع استصدار إعفاءات لهم، محتجا بأن توقعهم عن العمل قد يسبب إلى مسعاه الرامي إلى زيادة الإنتاج الحيوي للمجهود الحربي. ولم يتردد في تزوير الوثائق وإدراج الأطفال وربات البيوت والمحاميين في قائمة الميكانيكيين المهرة ونذوي الخبرة في الأعمال المعدنية. وكان إلى جانب ذلك يبذل كل جهد مستطاع للتغطية على العمال غير المؤهلين ومن كانت قدرتهم على العمل قد تعطلت لأسباب صحية أو إصابات.

أفضل من يصف هذا التحول في شخصية شندلر هي زوجته إميلي شندلر في مذكراتها، التي حملت عنوان "حيث يلتقي الضوء والظل"، "على الرغم من عيوبه، كان أوسكار ذا قلب كبير، وكان دائما على استعداد لمساعدة كل من كان في حاجة إلى المساعدة، وكان اجتماعيا، سخيا للغاية وكثير الأعمال الخيرية، ولكن في الوقت نفسه، غير ناضج على الإطلاق".

ويحكى أحد الناجين أنه سأل شندلر ذات مرة، لماذا فعل هذا؟ فكانت إجابته "لقد كنت نازيا، ولكنني أمنت بأن الألمان أخطأوا حينما بدأوا في قتل الأبرياء، وكونهم يهودا لا يهم على الإطلاق. بالنسبة لي كانوا مجرد بشر، لذا قررت أنني سأعمل من أجلهم وسأدخر أكبر قدر ممكن من المال".

شندلر لم يكن رجلا عظيما مجرد لأنه أنقذ يهودا فقط، بل لأنه أنقذ "الإنسان". وتفاعله مع الجرائم التي ارتكبتها السلطة النازية ضد اليهود، وتعاطفا مع اليهود، بل هو يتفاعل مع بشر وقع عليهم ظلم وبطش من الألمان. وحتى لو كان هؤلاء البشر من ديانة أخرى، لو كانوا مسلمين أو بوذيين أو هندوسا، فإن الأمر لن يختلف مع أوسكار شندلر، فتعاطفه سيقضي هو ذاته لن يتغير.

هدف سبيلبرغ من هذا الفيلم إنساني أولا وأخيرا. وقد كرم شندلر لأنه أنقذ الإنسان.

لا شك في أن تعاطفه وحماسه، وهو اليهودي الديانة، مع ضحايا النازية كانا عاملين قويين ومساعدتين، إلا أن صناعته لفيلم قائمة شندلر تكريما وتخليدا لذكرى أوسكار شندلر، يعد أمرا طبيعيا ومقبولا، خاصة عندما نتذكر التضحيات التي بذلها شندلر، مخاطرا بحياته.

يهودي بولندي، يظهر على قائمة شندلر. "لا أعرف لماذا فعلت ذلك؛ أعتقد أنني كرهت وحشية وسادية وجنون النازية. لم أتمكن من الوقوف مترجبا بينما الناس تقتل. فعلت ما بوسعي، وما كان علي القيام به. ما قال لي ضميري إنه يجب القيام به. هذا كل ما في الأمر حقا، لا أكثر ولا أقل".

هكذا يجيب شندلر على سؤال وجه إليه للاستفسار منه عن الدافع للقيام بهذه الخطوة الجريئة معرضا حياته للخطر. كانت أداة شندلر التي استخدمها في حملته لإنقاذ اليهود هي المكائنة سكورسيزي عام 1991.

اختار سبيلبرغ أن يصور الفيلم بالأبيض والأسود، باستثناء مشهدين ظهر فيهما معطف أحمر وآخر ظهرت فيه شعلة الشموع بالألوان. وقد جسدت الأدوار الرئيسية كل من ليام نيسون، في دور أوسكار شندلر، بن كينغسلي في دور إتراك شترن، وراف فايسن، في دور أمون غوث. في حين استخدم لتسويق الفيلم عبارة "من أنقذ روحا فقد أنقذ العالم بأسره" وهي مقتبسة من التلمود.

نقطة مضيئة

لم يكن أوسكار شندلر ملتزما أخلاقيا أو مدافعا عن حقوق الإنسان، بل هو صناعي ألماني غير مشغول بالسياسة، ورجل أعمال معروف عنه الانتهازية وحب الذات، همه الوحيد جمع المال، ينفقه على الشرب ومعاشرته النساء.

رغبة في استغلال الحرب لتحقيق مكاسب مادية، تعرضه عن حالة الإفلاس التي مني بها بسبب الكساد الاقتصادي الكبير، سافر إلى بولندا، وبالتحديد "الجيتو" الذي خُسر فيه اليهود، ليعرض عليهم شراكة استثمارية، يقومون من خلالها بتمويل وإدارة مصنع للأواني.

وهناك يعقد صفقة مع النازيين يتم بمقتضاها تزويده ببعض العمال اليهود من المعسكر لتشغيل مصنعه الذي ينتج أواني معدنية تساعد ألمانيا في جهودها العسكرية.

داخل كل منا توجد نقطة مضيئة، لا نعرف متى تظهر على السطح، فرغم ما عرف عن شندلر من نغمة وانتهازية، إلا أنه مع مرور الوقت، ومشاهدته للأهوال التي يمارسها الجنود الألمان ضد اليهود المعتقلين في المعسكرات، تنتصر إنسانيته تدريجيا ويبدأ في التعاون مع اليهود مضحيا بثروته من أجلهم. يقدم الرشاوى لكبار الضباط النازيين، كي يضمن بقاء اليهود الذين يعملون في مصنعه. ومن هنا تتحول الصفقة المادية المبرمة بين شندلر والنازيين إلى آلية لإنقاذ 1100

حاز الفيلم على سبع جوائز أوسكار من أصل اثني عشر ترشيحا، واحتل المرتبة التاسعة ضمن قائمة المعهد السينمائي الأمريكي لأفضل مئة فيلم على مر العصور.

بداية عرض الفيلم على رومان بولانسكي، ليقوم بإخراجه لكنه رفض الفيلم لأسباب شخصية كونه أحد الناجين من المحرقة. واعتبر أن الفيلم يعيد له ذكريات لا يرغب في استرجاعها.

أيضا عرضت القصة على مارتن سكورسيزي، الذي رأى أن الفيلم يجب أن يخرج مخرج يهودي، وفضل منح شرف ذلك لسيفين سبيلبرغ، مقابل حقوق إعادة إنتاج فيلم "راس الخوف" الذي أخرجه سكورسيزي عام 1991.

اختار سبيلبرغ أن يصور الفيلم بالأبيض والأسود، باستثناء مشهدين ظهر فيهما معطف أحمر وآخر ظهرت فيه شعلة الشموع بالألوان. وقد جسدت الأدوار الرئيسية كل من ليام نيسون، في دور أوسكار شندلر، بن كينغسلي في دور إتراك شترن، وراف فايسن، في دور أمون غوث. في حين استخدم لتسويق الفيلم عبارة "من أنقذ روحا فقد أنقذ العالم بأسره" وهي مقتبسة من التلمود.

هناك من يقول إن سبيلبرغ لم يكن يرغب في أن ترتبط صورته لدى الجمهور الأمريكي بيهوديته، شأن الكثير من السينمائيين اليهود في الولايات المتحدة الذين يميلون أكثر إلى التماثل مع عموم الأميركيين، يخفون يهوديتهم ويتخذون لأنفسهم أسماء لا تفصح عن هويتهم. الفيلم مقتبس عن رواية "قائمة شندلر" لتوماس كينلي، التي حصلت على جائزة بولكي، تحكي قصة أوسكار شندلر، وهو صناعي ألماني مسيحي أنقذ 1100 يهودي بولندي من القتل في المحرقة "الهولوكوست" إبّان الحرب العالمية الثانية.

هناك من يقول إن سبيلبرغ لم يكن يرغب في أن ترتبط صورته لدى الجمهور الأمريكي بيهوديته، شأن الكثير من السينمائيين اليهود في الولايات المتحدة الذين يميلون أكثر إلى التماثل مع عموم الأميركيين، يخفون يهوديتهم ويتخذون لأنفسهم أسماء لا تفصح عن هويتهم. الفيلم مقتبس عن رواية "قائمة شندلر" لتوماس كينلي، التي حصلت على جائزة بولكي، تحكي قصة أوسكار شندلر، وهو صناعي ألماني مسيحي أنقذ 1100 يهودي بولندي من القتل في المحرقة "الهولوكوست" إبّان الحرب العالمية الثانية.

هناك من يقول إن سبيلبرغ لم يكن يرغب في أن ترتبط صورته لدى الجمهور الأمريكي بيهوديته، شأن الكثير من السينمائيين اليهود في الولايات المتحدة الذين يميلون أكثر إلى التماثل مع عموم الأميركيين، يخفون يهوديتهم ويتخذون لأنفسهم أسماء لا تفصح عن هويتهم. الفيلم مقتبس عن رواية "قائمة شندلر" لتوماس كينلي، التي حصلت على جائزة بولكي، تحكي قصة أوسكار شندلر، وهو صناعي ألماني مسيحي أنقذ 1100 يهودي بولندي من القتل في المحرقة "الهولوكوست" إبّان الحرب العالمية الثانية.

كل ما يلمسه يتحول إلى ذهب. نحن هنا لا نتحدث عن الملك الإغريقي ميداس، بل عن مخرج عبقرى، هو ستيفن سبيلبرغ، الذي نادرا ما أخرج فيلما ولم يحقق النجاح. فما هي الوصفة التي اتبعها وضمنت له التألق وحصد الجوائز وإعجاب الجمهور؟

مدير قسم التحرير بشركة يونيفرسال الذي تحدث مع سبيلبرغ مدة ساعة، وعبر عن اهتمامه بأفلامه.

لم يكف سبيلبرغ بالزيارات العابرة، بل وجد لنفسه بيتا متنقلا مهجورا، كتب عليه "ستيفن سبيلبرغ - مخرج"، أقام فيه لينتقرب من المخرجين والكتاب والمحررين، يتعلم منهم ويكتسب المهارة والخبرة. بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ، وهو في سن العشرين، أصبح وجهاً ثانوية عشرة من عمره، على دخول مواقع التصوير داخل استوديوهات يونيفرسال السينمائية في مدينة هوليوود. لم يكن طموحه حينها أن يصبح نجما سينمائيا عندما يكبر، بل كان منذ البداية يطمح ليصبح صانع أفلام. وهذا ما كان.

علي قاسم
كاتب سوري
مقيم في تونس

الغريب أن "طفل الأستوديو" كما يلقبه النقاد، لم يدخل عالم السينما من البوابة الأكاديمية، بل تسلل إليها وسرق الحرفة من عباقتها. لم يكف بمشاهدة الأفلام، بل تجرأ، وهو طفل صغير لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، على دخول مواقع التصوير داخل استوديوهات يونيفرسال السينمائية في مدينة هوليوود. لم يكن طموحه حينها أن يصبح نجما سينمائيا عندما يكبر، بل كان منذ البداية يطمح ليصبح صانع أفلام. وهذا ما كان.

قاصف النجوم

حدثنا كان لهما بالغ الأثر في حياة سبيلبرغ؛ والده الذي أهداه يوما كاميرا قياس 8 ملمتر، ومشاهدته فيلم "الورانس العرب". ورغم أن سبيلبرغ الذي كان يطمح ليكون مخرجا، أصيب بالإحباط في البداية، فالمستوى الفني للفيلم جعل المهمة تصعب في عينه، إلا أنه لم يستسلم، وراح يجمع أي تقود يحصل عليها للذهاب إلى صالة العرض، وإعادة مشاهدة الفيلم مرات ومرات.

هذه التجربة إن كانت توحى بشيء فهي توحى بمدى تطور الحس الفني عند صانع الأفلام "الطفل"، وأكبر دليل على ذلك قوله يصف الفيلم، إن "السقف مرتفع جدا".

حاصد الجوائز

أصبح سبيلبرغ من أنجح مخرجي السينما في التاريخ وهو في سن السادسة والثلاثين. فقد أخرج أربعة من بين أعظم عشرة أفلام حققت أعلى إيرادات، منها إلى جانب "الفك المفترس"، فيلم الخيال العلمي "لقاءات قريبة من النوع الثالث" عام 1977، وفيلم "سارقو التابوت الضائع" عام 1981، أول أفلام سلسلة إنديانا جونز، الذي يعتبر من أعلى الأفلام دخلا على الإطلاق. وفيلم "إي.تي" عام 1982، وهو الفيلم الذي حقق أحد أعلى الإيرادات في التاريخ.

قائمة الأفلام التي أخرجها سبيلبرغ وأنتج بعضها طويلة، معظمها ينتمي إلى أفلام المغامرات والخيال العلمي، حصد خلال مسيرته جوائز فاقت أي صانع سينمائي آخر. ولكن ما يميز سبيلبرغ عن الآخرين، أنه لم يكتفِ كثيرا للأفكار الكبيرة، ولم ينشغل بالبعد الأيديولوجي،

وإن كان من أنصار الحزب الديمقراطي. هذا الحيا لم يحمه من جدل ثار حوله ويتعلق بيهوديته. التي إن لم ينكرها إلا أنه لم يتحمس لها في طفولته وشبابه. ففي عام 1994 حدث ما غير هذه الصورة، ففي هذا العام قدم للشاشة فيلم "قائمة شندلر".

ولد ستيفن سبيلبرغ يوم 18 ديسمبر عام 1946 في مدينة سينسيناتي في ولاية أوهايو، والدته ليا ادلر بوسنر، صاحبة مطعم وعازفة بيانو، والدة أرنولد سبيلبرغ يعمل كمهندس كهربائي، وينحدر جده من مدينة نمساوية تدعى سبيلبرغ، عاش بها في القرن السابع عشر.



ما يميز سبيلبرغ عن الآخرين أنه لم يكتفِ كثيرا للأفكار الكبيرة ولم ينشغل بالبعد الأيديولوجي



صانع المتعة والدشهة